



كان هذا السؤال محل اهتمام مركزي من قبل جمع كبير من العلماء والباحثين والمتقين المسلمين، في حينها لم يكن مصطلح الإسلاميين رائجاً بل المسلمين، وإن ورد المصطلح فهو يعني نخبة المهتمين بإعادة وحدة الأمة الممزقة. وهو الوحدة التي تصدعت بعد عزل السلطان عبد الحميد عام 1909، قبل أن تسقط السلطنة نهايًّا، كرمزية للوحدة ولا أقول الخلافة، لأنَّه من الخطأ الشائع منح مصطلح الخلافة الشرعية منذ العهد الأموي وثبيته، دون تحقيق لمناطه الشرعي والإصلاحي، حيث يستند إلى إمام أُجير يُصلح شأن الأمة ولا يستند بها أو عليها.

هذه الصدمة لم تكن حصراً على الفريق المناصر للسلطنة العثمانية، بل شملت حركة الإصلاحيين الإسلاميين الذين تألفوا كثيراً، من تأخر الإصلاحات في الدولة العثمانية ومحاربتها لهم، والذي ساعد التكالب الأُممي ضدها، وأُوجِد فجوات كبيرة في هيكل الدولة من الأستانة إلى أقصى أقاليمها، حيث شعر الجميع بعدها أنَّ هذا التفكك يقود إلى مستوى خطير من تهيئة الاجتياحات التي تحقت بالفعل عسكرياً، ثم انسحبت وبقيت سياسياً.

وهي اليوم تعود في صورة عسكرية متعددة تحت ذرائع مختلفة، بعد أن سقطت الأمة في أمراضها الداخلية، من أدخنة ثقافة غربية، لا تفيد الإنسان بل تُضيئه، إلى غلو جامح توحش مدنياً قبل عسكريه.

وفي وسط كل المسارات، كانت تكمن قوة الاستبداد التي فتك بكل محاولة لصناعة مجتمع قوي في أقطار المسلمين. ويعود سؤال البحث اليوم في ظل عاصفة شديدة، من الاجتياح السياسي والعسكري، الذي بدأ ولم ينته، وفي أجواء فشل عن تحقيق أي حد أدنى للتنسيق بين أقطار المسلمين، ولو لحساب مصالح تجمع أمن الشعوب وأمن الحكومات على أمل صد هذه العاصفة التي تتقدم بصورة مقاتلة روسية وعمامة إيرانية، رغم جغرافية طهران التي تنتهي للشرق الإسلامي، لكن الحقيقة أنَّ الغرب القديم، كما يُطلق عليه، لا يزال اللاعب الأصيل في المنطقة.

وفي هذا السياق جاء إقدام أنقرة أخيراً على بدء اتصالات مع تل أبيب، وهي اتصالات حقيقة مهما بررها البعض وأولها، ولكن غير صحيح ما روجه البعض إعلامياً من استهدافها لـ حماس، لكنها مؤشر على الوضع الذي وصلت له أنقرة في الشعور بالخذلان الخطير.

ولسنا هنا في معرض الملامة للعداليين، ولا نُسقط قدرتهم المترسّة على المناورة، والخروج من هذا التهديد الذي تدفع به أوروبا وطهران أحلام القيصر الأحمق، لكننا نطرح مسار تفكير مهم، هو من مسؤولية المثقف، الذي يجب ألا تجره حفلات التصفيق عن توصيف الحقيقة والبحث عن الدواء، برؤية العقل لا حماسة العاطفة.

إن هذا الموقف لحزب العدالة المتفهمة دوافعه والضغوط الشرسة التي تحاصره، وهي ضغوط تُصرح مباشرة بالحاجة إلى إنهاء تجربة الحركة الإسلامية في تركيا، أو ما يُسمى بالأردوغانية، لا يمنع من التذكير بالحاجة الماسة لوعي الإسلاميين وتأملهم العميق، والتوازن المسؤول في تقدير هذه الاتصالات والاتفاقات مع الإسرائيليين لدى حزب العدالة ولدى غيره من الأطراف.

نعم هناك اختلاف كبير بين من يعقد اتفاقات لأجل تأمين ظهره وسحق شعبه، ولاعتبار الجسور مع تل أبيب شراكة له مع المشروع الغربي تدافع عن نظامه، مقابل حصاره للمقاومة الفلسطينية وتهين الصف العربي والمسلم، وبين تجربة سياسية صعبة عبرت توازنات مهمة من خلال المشروع الديمقراطي، وحصلت على شرعيتها السياسية بأصوات الشعب، ولكن موازينها مع القوى الخارجية، والحصار الإقليمي لها، لا يجعل لها إلا خيارين: المناورة السياسية الصعبة مع أطراف معادية تاريخياً للامة، أو مواجهة المتطلب الدفاعي للدولة ومشروعها الديمقراطي الجديد الذي يقوده إسلاميوها، ولكن مع قاعدة شعبية مختلفة الميل، لم تفوتهم لحروب كبرى، وإن قادت الأحداث لها دون خيار، وهو موجود في تاريخ تركيا القديم والمعاصر، دون إسلاميتها الجدد.

لكن المنظور الإسلامي اليوم يجب ألا يهرب من هذه الزاوية وأن يخرج من تقدس تجربة إسلامي تركيا واجتها، ومنها مد جسور العدالة مع تل أبيب، لغرض العبور من هذه المرحلة كبعد أولي، وإن كان الطريق المائي الدولي لـ غزة الذي يتبعه العدالة مشروع إستراتيجياً، يُسقط معادلة الحصار، لكنه لم يكن البعد الرئيس في الاتفاق الأخير بين تل أبيب وأنقرة.

ولذلك، فالحالة الإسلامية تحتاج إلى كثافة وعي وهدوء، وتخفيض الرؤية العاطفية الجامحة، وإعادة تقييم التجربة الناجحة والمؤثرة جداً في تركيا، كمسار اجتهادي لم يُكمل حقبته بعد، وأمامه تحديات صعبة، لم ينته مشهدها الكبير.

إن هذا الحال يكشف اليوم بجلاء أن واقع الدول القطرية لا يمكن أن يحقق الحد الأدنى من الصمود، وأن الحاجة إلى تكتلات الأمة ضرورة عقلية واضحة كما أنها فريضة أممية جامدة، وهو سؤال إسلاميين الأوائل الذين عاصروا الصدمة، وشعروا بتأثيرات ساينكس بيكتو.

لكنهم سعوا بما يستطيعون لردم هذا التفرق، وحاولوا إحياء مهام الوحدة الأممية، في نقل التضامن والتبرع بين أطرافهم، واستثمار تركيبة الصراعات المختلفة لتكون جسوراً لعبور المساعدات، وخاصة لتحقيق الاستقلال، أمام القوى الاستعمارية.

وتحدي اليوم يبدو أصعب، وما جرى من محاولة نهوض وبعث فكرة الإسلام في الأمة من جديد، انتشر بصور مختلفة، بعضها يحمل عناصر انشطار وتقسيم للمسلمين، وبعضاً يبالغ في نظريته الأيديولوجية حتى يكاد أن يُحلها مكان الإسلام، مع وجود خيرية ومساهمة لهذه المدرسة وتلك، لكن شراسة صراع بعضها لم يكن وليداً للاستبداد وحسب، ولكن

أما العنصر القاتل فهو حصار أو وأد الاستبداد لكل حركة تجديد فكري وإصلاح سياسي، رغم أن هذا الحراك سعى جاهداً لتجنب التصادم ويسعى لصناعة مجتمعه ثقافياً، على أمل أن تنهض أقطار المسلمين وطنياً، ثم تتشكل في اتحاد أممي قادر على مواجهة مثل هذه التحديات والمؤامرات.

إن الإيمان بالنزعة الدينية التكفيرية لدى الغرب المسيحي، ومؤامراته ضد أمة الشرق كان واضحاً طوال فترة مسيرة الاستقلال، وهو تكثير اجتماعي عنصري وليس إنسانياً، لأنه يُصر على فرز الشرق من معادلة الحضارة الجامعية، ويمارس تكفيراً دينياً محضاً قد يختفي خلف علمانية المؤسسة الغربية، ولكنه يعود ويظهر في سياساتها وخطاباتها بكل وقاحة، بوجود الراهب المسيحي المتطرف وبغيابه.

ولم يكن ذلك خانياً عن مبشرى النهضة الإسلامية - وهذه النقطة مفصل مهم للغاية -. بل كان هذا التعصب والتشدد المسيحي الغربي موجوداً مرصوداً في أعينهم، وكتاباتهم، إلا أنهم رأوا أن حفلة الخطاب التي تشتعل في حاضر العالم الإسلامي، وتُلقي كل اللوم على المستعمر السياسي والعسكري، وتُهمل أوبئتها، كانت في ذاتها مرجحاً، يعيق دعوات الصناعة الذاتية للشرق الإسلامي قُطرياً وأممية وإنسانياً، لغالبية الأمة ولطوابئ الشرق المتعددة ولرسالتها لإنسانية العالم.

وكان هذا الهاجس يقوم على عقيدة نضالية حضارية، لثلاثة من العلماء والمثقفين المسلمين، من تحالف النهضويين المتعدد المشارك، بأن هذا الطريق هو مشروع صناعة البنية التأسيسية، التي تمنح الأرض والإنسان، العقل المسلم المعاصر الراسد، لتبني عبره الأسس والمقومات الانتقالية لطريق الأمة الواحدة.

أمة واحدة لا يخترلها مصطلح خلافة، وهي فراغ واحتراب ذاتي يشع، أو تخلف وثيوقراطية مريضة، ولكنه هيكل وحدة يقوم على مؤسسة جامعة متكاملة في اتحاد إسلامي عام، لا مؤسسات علاقات عامة باهتة بين منظمة وجامعة، وليس مؤتمرات موسمية، ولكن قوة ذاتية متحدة، تعلن للخصوم أحقيتها الطبيعية التي لا تنتظر شروطهم، وإنما تطرح رؤيتها الموحدة، بخطاب الإسلام للعدالة الإنسانية الجامعية.

والسؤال هنا، ليس إعادة حكايات الحُزن والإحباط أمام نهر الدماء، وتعدد النكبات، لكنه في مدار محمد يتسائل ويُذكر: هل أَنجزت طاولة الفكر الإسلامي المتطلب الثقافي للمشروع؟ وهل يُعذر القلم الإسلامي النهضوي من كل طيف شرقي، بسبب محاصرته من قطاع الطرق المستبددين ومن الشعوبية الساذجة؟ أم أن الفكرة هي مقدمة لرحلة المشروع، والأمة التي لا مشروع لها ولا وحدة جامعة تبنيها؟